مساهمات الرازي في الفكر الاقتصادي الاسلامي

أ. م. د.
سعاد قاسم هاشم
كلية
الآداب/ جامعة بغداد

المقدمة: اسهم المسلمون في العلوم المختلفة اسهاما كبيرا ، فصححوا ما كان خاطئا وأتموا ما كان ناقصا، وقاموا باعمال الترجمة عن اليونان وغيرهم، كما عملوا على جمع شتات المعرفة ، فضموا بعضها الى بعض وجعلوها في اطر منهجية تشمل مقولات متعلقة بكل فرع من فروع العلم والمعرفة وابتكروا العلوم الجديدة وقدموا اضافات اصيلة في البحوث التي بحثوا فيها واتوا بمقولات حافظت على اصالتها وحداثتها واثرت في الحضارة اللاحقة فكان الفكر العرب الاسلامي فكرا خصبا معطاءغزيرا الانتاج جليل الاثر ازدهر به العلم والحضارة امدا طويلاً فكان غرة في جبين الدهر.

ومن العلوم التي ضرب العرب بسهم وافر فيها منذ مئات السنين علم الاقتصاد الذي كان لمفكري وفقهاء العرب المسلمين مقولات وجدت في ثنايا مؤلفاتهم عالجوا فيها قضايا اجتماعية واقتصادية شكلت فيما بعد اساسا علميا لمن اتى بعدهم من العلماء والمفكرين الاقتصاديين الذين بنوا افكارهم ونظرياتهم الاقتصادية الحديثة عليها .

من مفكري الاسلام وعلمائهم الذين ظهروا في القرن الثالث الهجري وعاشوا في العصر العباسي الثاني عندما كانت النهضة التي ارسى قواعدها وعمل على نشرها المأمون لا تزال تسير في طريق الرقي والازدهارهو (ابو بكر محمد بن زكريا الرازي) الذي اشتهر بالطب والحكمة ، و تعرض

في احد فصول كتابه رسائل فلسفية (كتاب الطب الروحاني) لبعض القضايا الاقتصادية مثل لاكتساب والاقتناء والانفاق وتقسيم العمل التي وان كانت لم تعالج بشكل علمي واسع القضايا الاقتصادية التي اثارها هذا العالم من حيث الربط بين الاثر والمؤثر وبيان العلل والاسباب الا ان الضرورة العلمية تقتضي من الباحثين ابراز هذه الافكار الاقتصادية للكشف عن اسبقية الفكر الاقتصادي الاسلامي في تحليل القضايا الاقتصادية، لذا يأتي هذا البحث مساهمة متواضعة في ابراز الاراء الاقتصادية لهذا العالم والمفكر الاسلامي مؤمنة بان تقديم تفاصيل بشأن ابداعات السلف وجهودهم العلمية يعمق ايماننا بعظمة العطاء العلمي الاسلامي ويؤكد اصالة الحضارة الاسلامية واسبقيتها في البناء الحضاري والاسهام العلمي والفكري الانساني .

حياته وعلمه :-

ولد ابو بكر محمد بن زكريا الرازي في مدينة الري (250هـ-684م) [1]، وهي مدينة كثيرة الخيرات مرموقة الجانب وكانت تعد مركز من مراكز المشرق العامره[2].وعاصمة الاقليم المسمى (بلاد الجبال) في بلاد فارس والتي تحكمه اسره بني بويه ، كان في بداية حياته يميل الى العلوم الادبية ويقول الشعر ويتعلق بالموسيقى اذ كان يضرب العود ، وقد تلقى العلم عن كبر ونبغ فيه ، فبدأ بدراسة كتب الكيمياء والطلب والفلسفة [3] التي تعالج فيها عدد من موضوعات الفلسفة الالهية ولكنه لم يبلغ فيها مبلغا كبيرا وقد رد عليه كثيرون مثل الفارابي [4]. كما درس علوم الجراحة وتشريح الانسان فبرع فيهما وعظمت شهرته في مجال الطب الذي تعلمه في بغداد السلام حتى ان كثير من العلماء اجمعوا على انه طبيب العرب الاول لذا لقبوه (أبو الطب الاسلامي) و (جالينوس الطب الاسلامي) ، اذا كان له الى جانب فضل جمع المعلومات الطبية التي كانت مبعثرة او غير منظمة فضل

التعليق عليها واتخاذها اساسا لبناء حافل بالبحوث الطبية والكيميائية فكان متقنا لصناعة جمع المعلومات الطبية حاذقا بها عارفاً باوضاعها وقوانينها [1]. كما عد الرائد الاول في علم الكيمياء بما وصف من العقاقير والالات والادوات وبما حضر من المواد الطبية ، كما تميز باتجاهه العلمي في اجراء التجارب وبعنايته بالتحليل وتنظيم العمل في المختبر [2].
كان الرازي محبا للعلم الى ابعد الحدود شغوفاً بالمعرفة حتى وان لحقه الضرر من جراء هذا الامر ، اذ يقول في ذلك (واما محبتي للعلم وحرصي عليه واجتهادي فيه.

فمعلوم عند من صحبني وشاهد ذلك من اني لم ازل منذ حداثتي والى وقتي هذا مكباً عليه ، حتى اني متى اتفق لي كتاب لم أقراه ، او رجل لم ألقه ، لم التفت الى شغل فيه، ولو كان في ذلك علي عظيم ضرر ، دون ان اتي على الكتاب واعرف ماعند الرجل) [7].

وكان سلوكه في تحصيل العلم هو سلوك الباحث المتواضع للحقيقة لاسلوك المترفع عن الدرس ، وكان يدرج الاراء التي يطلع عليها من كتب القدماء حتى وان كان الرازي الذي ينقله غير جيد وتعليله لذلك ان بعض المعارف التي يظن انها غير صحيحة عند اصحابها والعاملين بها قد تكون مفيدة عند اقوام اخرين في أزمنة وأمكنه اخرى [8].

يتضح لنا من دراسة حياة هذا العالم العربي انه موسيقي وكيميائي وفيلسوف واخيرا طبيبا عظمت شهرته الاخيرة جميع اختصاصاته العملية والفكرية لانه برع في هذا المجال براعة فائقة وتولى رئاسة بيمارستان عضد الدولة من بين مئه طبيب [9]. وبذلك صار علماً بارزا من اعلام الطب الاسلامي في الشرق والغرب .

بعد حياته العلمية الحالفة بالعمل والجهد العلمي ونتيجة لما بذله من جهد في القراءة والبحث في العلمي ضعف نظرة يوم بعد يوم حتى فقده بالكامل منهيا عمله ببغداد راجعا الى مسقط رأسه متوفياً فيها عام (313هـ-925م) [10] تاركا للانسانية تراثا علميا في حقل الاخلاق والطب وسائر ضروب المعارف الطبيعية والالهية تراثاً يعتز به الشرق والغرب حتى يومنا هذا .

التعاون والاجتماع الانساني:

يبدأ الرازي بالاشارة الى ضرورة الاجتماع الانساني وهي نفس النقطة التي بدأ منها فلاسفة اليونان كأرسطو وافلاطون لأن الاجتماع الانساني حقيقة ماثلة في ذهن معظم الفلاسفة والمفكرين الذين لم يهملوا تناوله والدعوة الى سلامته واكتماله ، وهو صفة الانسان الذي تميزه عن غيره من الكائنات الحية ، فالعقل الذي ميز الانسان عن الحيوان هو الذي يقوده الى التعاون وارتفاق البعض مع البعض اذ يقول (وأن العقل الذي خصصناه وفضلناه على سائر الحيوان غير الناطق ادى بنا الى حسن المعاش وارتفاق بعضنا ببعض ، فأن قل ما نرى من البهائم يرتفق بعضها ببعض وترى اكثر حسن عيشنا من التعاون والارتفاق لبعضنا من بعض)[11].

أي ان الانسان هو المخلوق الوحيد الذي يقدر على تبادل الخبرة ويفهم ماهية الادوار المطلوبة منه فالصراع والعداء والمقاتلة من سمات البهائم وحسن العيش وتبادل الخبرة وارتفاق بعضها ببعض من قواعد الاجتماع الانساني وديمومته .

كما نجد ان الرزاي يؤكد مرة ثانية الى ان للعقل شأنا كبيرا في حياة الانسان فهو القوة التي امتاز بها عن غيره من الكائنات وكان يقدسه ويقول عنه (ان الباري عز اسمه انما اعطانا العقل وحبانا به، لننال ونبلغ به من المنافع العاجلة الاجله غاية ما في جوهر مثلنا نيله وبلوغه ، وانه اعظم نعم الله عندنا ، وانفع الاشياء لنا وأجداها علينا، وبالعقل ادركنا جميع ما ينفعنا ويحسن ويطيب به عيشنا ونصل الى بغينا ومرادنا) [12].

ان تأكيد الرازي على العقل واعلاء شأنه في كل الامور يؤكد لنا انه كان صاحب عقلية متميزة باصرة استمدت افكارها من القران الكريم الذي اهتم

بمسالة العقل واعتبره مناط التكليف وموضع المسؤولية في الانسان وهو بدون ادنى شك منهج عظيم فتح افاق الفكر ليس امام الرازي فحسب وانما امام جميع الفلاسفة المسلمين .

ان كلام الرازي عن ملكه العقل تكشف لنا على انه كان صاحب نظرة اجتماعية متكاملة [13]. جسد فيها فيلسوفنا اهم الاسس والمبادئ التي تقوم عليها الافكار الاجتماعية مؤكدا ما اتفق عليه الفلاسفة والمفكرون في ان:

1- الانسان كائن اجتماعي بطبيعته لايمكن ان يعيش في عزلة وهذا ما يميز عن الحيوان .
2- ان الهدف من التعاون هو ليس تأمين العيش فقط وانما هناك غاية اسمى من ذلك الا وهو العيش الجيد والحياة الرفيعة وهذا هو الهدف الذي تسعى اليه جميع الامم حتى وقتنا الحاضر الا وهو تامين الرفاهية الاقتصادية والمستوى المعاشي الجيد لافراد المجتمع .

كما يستطرد الرازي في مكان اخر ليبين لنا الاثر الحاسم للتعاون في تحقيق الحياة الحسنة للانسان اذ يقول .

(وبالجملة انك لو توهمت انسانا واحدا مفردا في فلاة لعلك لم تتوهمه عائشاً لم تكن تتوهم عيشة عيشا حسنا هنيئا ، كالعيش من قد وفر عليه كل حوائجه وكفى ما يحتاج ان يسعى فيه ، بل عيشا وحشيا بهيماً سمجاً لما فقد من التعاون والتعاضد المؤدي الى حسن العيش وطيبة وراحته) [14].

فالتعاون عند الرزاي مهم للانسان الذي لا يستطيع ان يعيش بمفرده لان الطبيعة جعلته قاصرا على كفاية نفسه بنفسه ولا يستطيع ان يوفر لنفسه كل مستلزمات عيشه ولاسيما الضرورية منها فلابد من ان يجتمع ويتعاون مع افراد جنسه ليكمل معهم احتياجاته الضرورية التي لا يستطيع ان ينتجها بنفسه فالتعاون والتكامل ضروري لدوام حياة افراد المجتمع .

التخصص وتقسيم العمل :-

بعد ان تناول الرازي عن اهمية الاجتماع الانساني والتعاون بين افراد المجتمع انتقل الى نقطة جوهرية سبق بها مقولات الاقتصاديون المعاصرون الا وهي التخصص وتقسيم العمل ، فالرازي بالإضافة الى انه يرى ان الانسان غير قادر على العيش وحده بقوله :

(فأن الرجل الواحد منا طاعم ، كاس ، مستكن ، امن ، وانما يزاول من هذه الامور امرا وحدا فقط ، لانه اذا كان حراثا لم يمكنه ان يكون بناء وان كان بناء لم يمكنه ان يكون حواكا وان كان حواكا لم يمكنه ان يكون محاربا) (15).

فالانسان في راي الرازي لا بد ان يجتمع مع افراد جنسه ويختص كل منهم بعمل معين يوفر به الحاجة التي تخصه وتخص ابناء جنسه ، الذي هم بأمس الحاجة اليها ، هكذا تصبح العلاقة بين افراد المجتمع علاقة خادم ومخدوم ، ساع ومسعى اليه ، في هذه الحالة فقط يطيب العيش كل واحد منهم وتتم النعمة بينهم .

فتقسيم العمل عند الرزاي مهم جدا اذ نجده يلمح الماحة مفيدة الى اثر كثرة الناس على تقسيم العمل وتأمين عيشهم وحاجاتهم اذ يقول :

(وذلك انه لم اجتمع ناس كثيرون متعاونون متعاضدون ، اقتسموا وجوه المساعي العائدة على جميعهم وسعى كل واحد منهم في واحد حتى حصلها واكملها ، فصار لذلك كل واحد منهم خادما ومخدوما وساعيا لغيره ومسعيا له فطاب للكل بذلك المعيشة وتم على الكل بذلك النعمة ، وان كان في بينهم بون بعيد وتفاضل كثير، غير انه ليس من احد الا مخدوم مسعى له مكفي كل حوائجه) (16).

فالتخصص وتقسيم العمل من سمات الاجتماع الانساني والرازي يذكر ان الحضارات الانسانية يصنعها اناس تباينوا في تخصصاتهم وتساندوا في خبراتهم واعمالهم ، ولا يقوم عيش هني رغيد الا بهذا التخصص فاذا تساوت وتشابهت الاعمال فالعيش يصبح وحشيا بهيما سمجاً، والناس في نظر الرازي اجتمعوا على العمل والتعاون فيه .

وبهذه المقولات يكون الرازي قد سبق ادم سمث في اهمية تقسيم العمل الذي يؤدي في راي سمث الى (17) :

1- التخصص الكامل في الاعمال التي تلائم إمكانياته الفرد الذاتية .
2- التخصص في مهنة معينة يؤدي الى رفع كفاءة ومهارة العامل في مجال عمله .
3- تقسيم العمل يؤدي الى زيادة انتاجية العمل ورفع مستوى الرفاه الاقتصادي للمجتمعات البشرية .

والرازي لا يدعو الى العمل والتخصص فيه فحسب ، وانما الى انجازه بدقة وحرص لان الدقة والمهارة في العمل المنجز تحفظ كرامة الانسان وتمنع الهوان عنه ، وتحدث في نفسه اعتبارا ومعنى لحياته وتبعد عنه الذلة والمهانة ، وهو اتجاه تربوي يتناوله الرازي بوعي العارف بفاعلية الانسان واثره حتى انه قال في العمل المنظم قولا يدل على رجاحة في معرفة الحاجات النفسية والبدنية للانسان ووافقا الى الاهتمام بالعمل ودرجة الوعي به بقوله .

(التقصير في العمل يؤدي الى الذله والخساسه والمهانة ، اذ كان يؤدي بالانسان الى ان يصير عيالا وكلا على غيره) [18].

الدخل والادخار عند الرازي :-

يعرف الرازي (الدخل) (الاكتساب) تعريفا يقارب التعاريف المعاصرة للدخل ونستطيع ان تلتمس ذلك من نصه الذي يعرف فيه الاكتساب قائلا :

(فالقصد في الاكتساب اذا هو المقدار الموازي لمقدار الانفاق وزيادة فضله تقتني وتدخر للنوائب والحوادث المانعة من الاكتساب) [19].

هنا تطابق النص الذي ذكره الرازي حول الاكتساب مع ما جاء به الاقتصاد الوضعي من كون الدخل الذي يحصل عليه الفرد يتجه نحو الانفاق وما تبقى منه يذهب للادخار فيقول ثانية .

(واما كمية الانفاق فانا قد ذكرنا قبيل ان مقدار الاكتساب ينبغي ان يكون موازيا لمقدار الاتفاق والفضلة المقتناة للنوائب والحوادث) [20].

كما يشير الى ان الدخل الذي يحصل عليه الفرد لا يأتي الا لقاء خدمة او عمل يقدمه فيقول (فانه حينئذ المكتسب قد اعتاض كدا بكد وخدمه بخدمة)[21].

لذلك فهو يرفض تماما ترك العمل الاقتصادي والحصول على دخل دون عمل او خدمة قائلا (ذلك ان الرجل متى رام من صاحبه ان ينيله شيئا مما في يديه من غير بدل ولا تعويض فقد أهان نفسه واحلها محل ما أفقدته الزمانه والنقص عن الاكتساب) [22].

وفي معرض حديثه عن الاكتساب يشير الرازي الى الصناعة اذ عدها خير المقتنيات ودعى الى الاهتمام في تعلم الصناعة ذات النفع المباشر لادامة الحياة للافراد والجماعات فقد ذكر .

(وخير المقتنيات وابقاها واحمدها وامنها عافية الصناعات لاسيما الطبيعية الاضطرارية التي الحاجة اليها دائمة في جميع البلد وعند جميع الامم) [23].

وهو لا يدخر جهدا في الحث على تعلم الاعمال النافعة الخالدة والمستحضرة في الذهن او المحفوظة في الذاكرة وقد رأى ان الانسان الحاوي لهذه الافكار غني في كل حين قائلا (فقولوا لهم اقتنوا وادخروا مالايغرق) [24] ويذكر (فان الاملاك والاعلاق والذخائر غير مأمون عليها حوادث الدهر) [25] .

أي ان الرازي هنا يؤكد على تعلم المهارة واكتسابها وهذا ما ذهبت اليه الدراسات الحديثة في اهمية التعليم المهني والتقني اللازم والضروري للتنمية الصناعية .

اما الادخار كأحد الجوانب المهمة لاقتصاد اي بلد فقد عده الرازي احد الاسباب الاضرارية في حسن العيش الناتج عن تقدم المعرفة العقلية مشيرا الى ان الاقتناء غريزة يحتاج اليها الانسان ببصيرته الفكرية ، فكيف لا والحيوانات تقتني وتدخر لان التقصير في الادخار في نظر الرازي يؤدي الى جعل حياة المرء غير مضمونة العواقب[26].

لذا نجده يدعو الى ان يعمد الفرد الى عمل موازنة بين كمية الأنفاق ومقدار الدخل (الاكتساب) فلا يعمد الى التقتير والاسراف بل ينهج منهجاً متوازياً في التصرف بدخله بين الانفاق والادخار قائلا (فمقدار

الانفاق اذا ان يكون اقل من مقدار الاكتساب حتى يدخر لنوائبه شيئا من هذا الاكتساب)[27].

وهذا لا يعني في رأية ان يكون مقترا فيذكر (غير انه لا ينبغي للمرء ان يحمله الميل الى الاقتناء وحب الشهوات وايثارها على ترك الاقتناء البتة بل يعتدل فيها كل واحد مقدار كسبه وعادته التي جرت في الانفاق ونشأ عليها وحاله ورتبه وما يحب ان يكون لمثله من القنية والذخيرة)[28].

هذه السياسة التي يدعو اليها الرازي هي السياسة الاقتصادية نفسها التي طالب بها الاسلام أذ نهى عن التبذير والتقتير عملا بالاية القرانية (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا)[29].

وحث الاسلام على الاعتدال في معظم مناحي السلوك بقوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) [30]. فالتقتير في الاسلام كالاسراف غير مستحب لانه يؤدي بالمالك الى منع الاهل والنفس من الاستمتاع بنعم الحياة وقد جاء الاسلام قواما بين هذا وذاك وهذا الاتجاه المتوازن في الانفاق والادخار الذي جاء به المنهج الاسلامي لم يخالفه الرازي فيما ذكره من اراء حول الانفاق والادخار .

يتضح لنا من خلال ما تقدم عرضه لبعض جوانب الفكر الاقتصادي للرازي ان العطاءات الاقتصادية لهذا العالم وان كانت متفرقة ومتنوعة الا اننا نجد ان افكاره الاقتصادية مختلفة وتقوم كل فكره على حده ، ناهيك عن تميزه عن غيره من الفلاسفة بانه وان اعطى للعقل دور في بناء المجتمع والحضارة الا انه لم يكن مقلدا للاخرين ممن اكدوا على دور العقل وانما كان صاحب عقلية متميزة باصره استمدت افكارها من القران الكريم الذي اهتم بالعقل وعده مناط التكليف) وهو بدون ادنى شك منهج عظيم للاتجاه الاخلاقي لدى الفرد والمجتمع .

الهوامش

1- فروخ ،عمر، تاريخ الفكر العربي الى ايام ابن خلدون ،ط5،(بيروت: دار العلم للملايين 1979م) ص.315

2- ياقوت الحموي، شهاب الدين ابو عبد الله البغدادي الرومي (ت 626هـ/ 1229م)
معجم البلدان ،(بيروت :دار صادر 1977م) ،ج3،ص116 .

3ـ فخري ،ماجد ، تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ترجمة كمال البازجي، (بيروت: "د.م" 1974م) ص.137

4- فروخ ،عمر ، تاريخ الفكر العربي، ص.320

5- ابن خلكان،شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر (ت681هـ/ 1283م) ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق د. احسان عباس، (بيروت: دار الثقافة "د.ت") ،ج5، ص158 .

6- فخري،ماجد ، تاريخ الفلسفة ،ص.137

7ـ حربي ،خالد احمد ، علوم حضارة الاسلام ودورها في الحضارة الانسانية ،كتاب الامة،ع104 ،(قطر: وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية 1425هـ) ص.102
8- المصدر نفسه.
9- عنايات،راجي، سلسلة اعلام العرب، الرازي ابو الطب العربيومؤسس علم الكيمياء،ط1 ،(بيروت "د.م"1976م) ص.18
10- العلواني ، مصطفى، علم توزيع السكان عند العرب ، النشرة السكانية ، ع22-23 ، اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا ،("د.م" 1982م) ص159 .
11- الرازي، ابو بكر محمد بن زكريا (ت320هـ/ 933م) ،رسائل فلسفية كتاب الروحي ،جمعها وصححها ، ب.كراوس ،(جامعة فؤاد الاول ، كلية الاداب "د.ت") ص.80
12- المصدر نفسه.
13- طراد ،مجيد مخلف، العدالة عند فلاسفة الاسلام من الكندي الى ابن سينا ، رسالة ماجستير غير منشورة،(جامعة بغداد : كلية الاداب ، 1985م) ص.91
14- الرازي ، رسائل فلسفية ، ص81 .
15- المصدر نفسه.
16- الرازي ، رسائل فلسفية ، ص.81
17- علي، عدنان عباس ، تاريخ الفكر الاقتصادي ،(بغداد: مطبعة عصام 1979م) ،ج1،ص240ـص.241
18- الرازي ، رسائل فلسفية، ص.83
19- المصدر نفسه.
20- المصدر نفسه.
21- المصدر نفسه.
22- المصدر نفسه ، ص84 .
23- المصدر نفسه.
24- المصدر نفسه.
25- المصدر نفسه.

26ـ جابر ، عجيل نعيم ، الجوانب النفسية والتربوية في فلسفة ابي بكر الرازي ، رسالة دكتوراة غير منشورة ،(بغداد، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي ،2002م) ص.212
27- الرازي ، رسائل فلسفية ، ص82 .
28- المصدر نفسه ، ص84 .
29- القرآن الكريم ، سورة الاسراء ، آية( ) .
30- القرآن الكريم ، سورة البقرة ، آية (143).